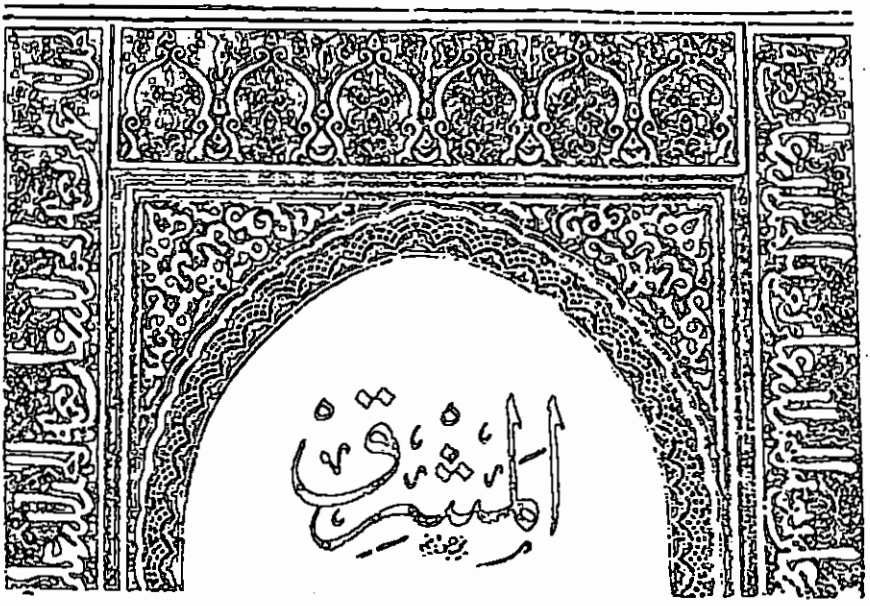

السنة الثلاثون تشرين الاول ١٩٣٢

الطقوس والطوائف

في

الكنائس الشرقية

للابوين يوسف مونجان وفرديناند توتل اليسوعيين

١

توطئة

اخذ مجمع الكنائس الشرقية المقدس يُعنى بتدوين الحق القانوني الكنائي للطوائف الشرقية وطقوسها ، فاتجهت جهود الكتبة والدارسين الى تلك الناحية من العلوم الدينية ، واشتدت ، في المدارس الاكليريكية ، عزائم الاساتذة والطلاب في مواصلة البحث عن هذا الموضوع الخطير . وان ادارة الدروس الاكليريكية في كلية القديس يوسف منذ سنين عديدة ، اهتماماً خاصاً بالمسائل المتصلة بحياة الكنائس الشرقية ، المساعدة على حسن التفاهم ، وعلى التقارب بين المسيحيين الشرقيين والكرسي الرسولي ؛ فتحت في معهدها اللاهوتي منهجاً واسعاً لدرس الشؤون الطائفية والطقسية .

من الدروس التي القاها الاب يوسف مونجان اليسوعي ، استاذ اللاهوت الادبي والحق القانوني في اكليريكية كلية القديس يوسف ، نتج كتاب طُبع باللاتينية طبعة حجرية ،

باسلوب مدرسي محض ، وهو آلة للبحث ، ومورد لذاكرة التلاميذ في مراجعة الدروس التي سمعوها ، وفيه من المنافع والفوائد ما يزّ وجوده في اللغات الاجنبية فضلًا من العربية . وهو حقيق بان يتداوله لا طلاب المدارس فحسب بل كل كاهن متنوّر ونظامي مثقّف ، غيور على معرفة شؤون الطوائف واصولها . فاقتطفنا منه ما رأيناه ، بالاتفاق مع المؤلف ، صالحًا للنشر ، وعرّبناه تعريبًا مخالفًا بعض المخالفة اصله اللاتيني ، اذ جرّدناه ، ما امكن ، من صبغته المدرسية المحضة والبسناه الحلة التي لا بدّ منها ليروق اعين القراء ، متوسّعين ببعض البنود الواجب شرحها لتقريبها من العامة ، موجزين ببعض الشروحات المستفاضة ، وغرضها جدلي لا خير ، مقدمين في اوائل الكتاب ما اخره فيه المؤلف ، مؤخرين فيه ما قدّمه ، طبقًا لما رأيناه موافقًا لحسن التنسيق وروتق الانشاء .

على ان فكرة المؤلف المبتكرة لم تتغير ، ولم يظهر منها ، في الطبعة العربية ، الا ما اطلع عليه حضرة الاب مونجان بذاته ورآه موافقًا صميم آرائه .

هذا تنبيه لا بد منه ليكون القارئ على بصيرة من صحة نسبة المقال الى صاحبي التوقيع . فيعود لكل ذي حق حقه .

الاب فردينان توتل اليسوعي

***

اذا ما قابلنا بين حالة المسيحيين كما كانوا على عهد الرسل ، وهم روح واحدة وقلب واحد مشتركون بقسمة الخبز ، وحالتهم كما هم الآن في العالم موزّعون بين طوائف وملل شرقًا وغربًا ، لا يسعنا الا السؤال كيف نشأت تلك التنوّعات حتى ضمن الكنائس الكاثوليكية المتحدة مع الحبر الروماني بايمان واحد ؟ وقد ينال سؤالنا هذا ، فيما يخص الكنائس الشرقية ، اهمية عظيمة ، لان امر الطائفية في بلادنا أسّ من اساسات الحياة الاجتماعية فضلًا عن الدينية ؛ والطائفية تسود في الانتخابات وفي توزيع الوظائف العمومية ، ولها حقوقها المرعية اليوم في جملة حقوق الاقليات في جمعية الامم كما كانت مرعية الامس على عهد بني عثمان . وربّ قاعدة من قواعد الشرق كحلب وبيروت ومصر ضمت في حدودها الكنائسية جماعات من المؤمنين الكاثوليكيين الذين يحقّ لهم ان يتناولوا جسد الرب من مائدة خلاصية واحدة ، وهم مع ذلك ينتمون كل جماعة الى رئيسها ، ولها كنيستها ، وكهنتها ، ولغتها وتقاليدها وحقوقها العامة والشخصية ، انما هي وحدة الايمان بتنوّع الطقوس والطوائف .

ولا حاجة الى تعداد تلك الطقوس والطوائف ، والقارئ اللبيب يعرفها . وسوف يأتي الكلام عليها مفصلًا ، وهي كلها تنتمي الى اصل واحد وهو الدين

الذي أسسه السيد المسيح على الارض.

ولا يخفى ان هذا الدين كان واحداً في عقائده وفي طقسه. ان امر العقائد لا يدخل في موضوع كلامنا الآن، وما همنا الا الطقوس كيف تفرّعت من اصلها ونشأت وتعددت، ونالت ما نالته من الاهمية حتى صار الاحبار الاعظمون يسنّون الشرائع في سبيل حفظها وصيانتها واصبح من واجب الرعاة والمؤمنين ان يدرسوا تقاليدها ويسلكوا بموجبها؟

ان البحث لا يوفي الموضوع حقه الا باستقصائه من اصله، والسؤال عن معنى كلمة الطقس والطائفة. وهذا السؤال يؤدّي الجواب عليه فرصةً لمباحث نظرية يتتج منها فوائد لا تاريخية فقط، تلبية للمطلوب، ولكن ادبية وعملية ايضاً، لانها تفتح لنا خطة الكنيسة في معالجة شؤون الطقوس وتساعدنا على ان نسلك تلك الخطة بارشادها من غير افراط ولا تفريط في التمسك بالمبادي والعمل بها.

ما معنى لفظة الطقس في اصلها اللاتيني؟ - كيف تطوّرت ورادفت معنى الطائفة او الكنيسة في بلاد الشرق؟ - كيف استقلت كل كنيسة او طائفة عن غيرها حتى صارت قوميات عديدة ضمن منطقة واحدة؟

ان الجواب على سؤالاتنا الثلاثة هذه، يكون موضوعاً لمقالنا اليوم.

١

الطقس ومعناه وتحديداته

من يؤدي لنا معنى الطقس بمعرفه الكنائي الكامل؟ اذا عمدنا الى معجم اللغة العربية قرأنا التحديد التالي: «الطقس معناه الطريقة، وغلب على الطريقة الدينية، وهو لفظة نصرانية دخيلة.

وهذا التحديد لا يروي غليلاً لانه لا يميز بين طريقة وطريقة. ولا بد من البحث على معنى لفظة «طقس» في عرف النصارى واستعمالها الشائع بينهم، وعلى الاخص في آثار احبارهم ومعلميهم وذلك في حياة الكنيسة، وفي وثائق الكرسي الرسولي، ورسائل البطاركة.

معنى الطقس في حياة الكنيسة

فان انعمنا النظر في حياة الكنيسة رأينا فيها رتباً مقدسة كرتبة العماد ، وسمعنا فيها اقوالاً ، وشاهدنا فيها اعمالاً واشارات ترافق الرتب المذكورة ، والمسيحيون يسمونها طقساً .

واذا سرّحنا رائد البصر في كل كنيسة من الكنائس وجدنا فيها رتباً مقدسة خاصة بها ، هي عبارة عن الرسوم الموضوعة للقيام بواجب العبادة العمومية . وهذه ايضاً يدعوها المسيحيون طقساً : هناك ، مثلاً ، الطقس الليوني ، نسبةً الى مدينة ليون في فرنسة ؛ والطقس الميلاني ، نسبةً الى ميلانو في ايطالية . واذا شملنا بنظرنا كنائس عديدة وقابلنا بين رتبها او طقوسها ظهر لنا الطقس بظاهرة جديدة . فانه تارة يفيد الرتب التي لا تصطبغ بصفة نظامية متعلقة بالاحوال الشخصية المدنية ، كالطقس الليوني المذكور آنفاً ، والطقس المستعرب (Mozarabique) المنسوب الى البلاد الاسبانية التي عاش مسيحيوها تحت الحكم العربي في القرون الوسطى ؛ وطوراً يفيد الرتب او ظاهرات العبادة العمومية المتعلقة بنظام ما كنائسي مؤثر في احوال الاشخاص المنتمين اليه ، كالطقس الماروني او الارمني .

وان المقابلة بين الكنائس اللاتينية والشرقية خاصة تكشف لنا على طقوس لا تختلف بعضها عن بعض الا في الرتب المقدسة ، وتبقى موافقة بعضها بعضاً في الانظمة والفرائض كالطقس الليوني والطقس الميلاني في الكنيسة اللاتينية ؛ وترينا طقوساً تختلف فيها الانظمة والفرائض كما هي الحالة في الطقس اليوناني او البيزنطي والطقس الارمني والطقس القبطي ، في الكنيسة الشرقية .

فان شئنا ان نطلق على الطقس تحديداً شاملاً معانيه بتمامها قلنا ، وكان قولنا التحديد العلمي الواجب الاصطلاح عليه بين اللاهوتيين : ان الطقس هو ترتيب الرتب (او الليتورجية) المقدسة المرتبط بنظام ما .

فالليتورجية ، او فرائض الخدمة والعبادة الرسمية في بيعة الله هي كالعنصر الاولي والاصلي المكوّن منه الطقس ؛ اما النظام المرتبط بها ، فهو لاحق لها ،

وهو كعنصرها الثاني . ومن ثم يبدو حالاً الفرق بين العنصرين ، وكل واحد في مرتبة غير مرتبة صاحبه ، ولكل واحد خواصّ غير خواصّ الثاني . فالرتب يعسر جدًّا تغييرها ؛ اما النظام ، وان يكن عسير التغيّر ، فهو اقل منعة من الطقس دون التغير ، اذا ما مست الحاجة الى ذلك في ظروف الزمان والمكان .

معنى الطقس في تعليم الكرسي الرسولي

لم يعالج الكرسي الرسولي المسألة التي نحن في صددها مباشرة وخاصة . لكنه وضع اركان التعليم الكاثوليكي فيها ، لما تكلم عليها عرضاً في مراسلاته مع الشرق .

في ٢٤ شباط سنة ١٨٧٠ وجه البابا بيوس التاسع رسالة الى السيد انطوان يوسف تيانو ، القاصد الرسولي في القسطنطينية ، ليبلغها الى الكنيسة الارمنية الكاثوليكية : قال :

« يجب ان يُنبّه الارمن وسائر ابناء الطوائف الشرقية الى الفرق العظيم الموجود بين الرتب الكنائسية (*rites*) وبين انظمتها (*discipline*) ؛ لان الخلط في الامرين كثيراً ما يؤدّي الى الالتباس والاضطراب في عقولهم وقلوبهم ، ويثير فيهم عواطف التضجر والتذمر على الكرسي الرسولي . وسرعان ما يغتنم اعداء الكرسي الرسولي كل فرصة سانحة لتذكية نار تلك العواطف ووضع العوائق دون ارادة الاب الاقدس وتحقيق امانيه الخلاصية في سبيل الكنائس الشرقية .

« اننا ، مع كل الذين سبقونا على هذا الكرسي الرسولي ، اعلنا ارادتنا بوجوب المحافظة على الطقوس الشرقية ، في كل ما ليس فيها مناقضاً للايمان وللوحدة الكاثوليكية او للآداب الكنائسية ولياقتها . لكن تلك المحافظة لا تحول دون ان يتمّ حسن التنسيق في نصّ القوانين الكنائسية النظامية ، لكي تكون موحدة في اهم ابوابها ، على ان تسترد قوامها السابق ، بعد ما تكون قد تزعزعت وضاعت على مدى الايام » .

معنى الطقس في اقوال الاحبار الشرقيين

ان اقوال الاحبار الشرقيين على اختلاف لغاتهم وتنوع الرسائل التي ارسلوها الى رومة في شأن الطقوس لما يأتي مصداقاً لقولنا السابق في معنى الطقس وتحديده ، والتمييز بين الرتب والانظمة

في ١٨ مارس ١٨٧٠ ارسل الاساقفة الروميون الى المجمع الڤاتيكاني ممروضاً غرضه الشؤون الطقسية[1] قسموا فيه النظام اربعة اقسام : ١ً نظاماً طقسياً ؛ ٢ً نظاماً قانونياً شاملاً الاكليروس والعلمانيين معاً ؛ ٣ً نظاماً خاصاً ببعض الاحوال ؛ ٤ً نظاماً عادياً او مألوفاً.

١ً فالنظام الطقسي ، موضوعه الاحتفال بالقداس الالهي واقامة الصلاة الرسمية ، ومنح الاسرار وسائر الرتب المعهودة في الكنيسة اليونانية. قالوا فيه: انه يجب ان لا يطرأ عليه تغيير لانه يرقى الى عهد الرسل وتقاليد الآباء ، واستشهدوا على قولهم كلام القديس باسيليوس.

٢ً والنظام القانوني ، او الموضوع للاكليروس والعلمانيين معاً ، هداية لهم في طريق الصلاح ؛ قالوا فيه: ان بنوده ، اذا حفظت ، ادّت بمحافظيها الى ذرى القداسة ، فما من حاجة الى التغيير فيها.

٣ً والنظام الخاص ببعض الاحوال ، وموضوعه النقائص العارضة في بعض الاحوال الرهبانية او الكنائسية ضمن مقاطعات محدودة ولاشخاص معيّنين ؛ قالوا فيه: ان كان ولا بد من ادخال التغيير فيه ، فيكفي ان ينال التغيير البقعة من الأرض المذكورة ، او الاشخاص المذكورين ، بواسطة مجمع محلي.

٤ً والنظام المألوف اي المدوّن ، لا في الكتب ولكن في العوائد الجارية بين المؤمنين ، قالوا فيه: انه من الواجب ان يتبع فيه مثال الكنيسة الرومانية ، فتراعى الظروف الجديدة الغير المألوفة في العوائد القديمة والجديرة بان تنبه خواطر اولياء الامر الى ضرورة الاصلاح والتجديد . وخذ لك في ذلك مثلاً نظام الدواوين القانونية ، والمدارس الاكليريكية وغيرها ، والمستشفيات الخ الخ.

---

(١) راجع مجموعة مانسي : ٥٣ ، ص ٦٢٢.

وختموا كلامهم معربين عن رغائبهم بالّا يُحدث تغيّر في الطقس ولا في نظام الكنيسة اليونانية ، لكي لا يصيروا هدفاً لاعتراضات الاخوة المنفصلين وانتقاداتهم .

وان كلام الاساقفة الرومين يبيّن الرابطة بين الطقس في معناه الاصيل ، وبين عنصر من عناصر النظام الممكن ان تتغير من دون ان يتغير الطقس في صميمه ، ومن امثال ذلك التغييرات الممكن احداثها في نظام الامتيازات والوظائف والرتب الخ . . . وهي محفوظة في بعض الكنائس ومهملة في غيرها . ولهذا الامر ايضاً تشهد اقوال بطاركتنا الشرقيين ، ولا شك ان القارئ يشتاق الى سماعهم ، ولنا في الاعادة افادة .

اليك ما كتبه البطريرك غريغوريوس يوسف ، السعيد الذكر ، في ١٢ ايار ١٨٦٦ الى الكردينال رئيس مجمع انتشار الايمان ، وقد عربنا كلامه عن الايطالية اخذاً عن مجموعة مانسي (٤٩ : ٢٠٠) .

« ان الكنيسة الشرقية في حاجة الى الاصلاح وذلك من وجوه عدة اهمها البنود التالية : قلة نظام الرهبانيات ؛ سلوك المرسلين اللاتين بالطوائف الشرقية طريقة تمسّ بحقوقها ؛ الجهل في السواد الاعظم من الاكليروس ؛ عدم وجود حق قانوني خاص ومناسب لعوائد كل طائفة من الطوائف لان القوانين القديمة مهملة ملغاة وممارستها غير ممكنة والحكم في الكنيسة الشرقية اصبح قيد الاستبداد ، والقانون صار هدفاً لمخالفات شتى .

وان هذه النقائص متغلغلة في جسم الطائفة وفي حياتها وماسة بالنظام ، فلا بد من اجراء بعض التغييرات في الاحوال الحاضرة لبلوغ المأرب من الاصلاحات المنشودة .

فكلام البطريرك غريغوريوس يوسف مصداق اذن للقول السابق المميّز بين الطقس والنظام .

وبالمعنى ذاته تكلم السعيد الذكر اغناطيوس فيلبس عركوس ، البطريرك السرياني الانطاكي ، في رسالته الى الكردينال ذاته (٢٦ آب ١٨٦٦) . فقد وصف الاضرار اللاحقة برعاياه من جراء الدعاية البروتستانية وغيرها ، وسأل

القبض عليها بالسلاح ذاته الذي هاجمت به القطيع المسيحي، اعني بطبع الكتب الدينية، وفتح المدارس والمستشفيات، وغير ذلك مما لا يمكن احداثه من غير احداث تغيير في النظام الكنائسي الحالي.

وكذلك السيد انطونيوس حسون، جاثليق الارمن، في رسالته الى الكردينال المؤرخة من القسطنطينية في ٢٥ آذار ١٨٦٦. فقد كشف على امراض النفوس الروحية: روح الماسونية، الاضاليل العصرية الخ. ثم دعا الى معالجتها بالوسائل المستحدثة في التعليم وفي الانظمة الكنائسية. ذلك ما دلّ على اعتقاده امكان ادخال بعض التغييرات في النظام.

وان الفرق الموجود بين الطقس والنظام بيّن من طبيعة الامر ومن غاية وجودهما في الكنيسة. تلك الغاية انما هي خلاص النفوس. فان كان النظام غير قابل التغيير البتة، وبقاؤه واجب كبقاء الطقس بمعناه الاصلي، تعذّر تدبير الكنيسة على رؤسائها وعلى من عهد اليهم بامورها الروحية والزمنية طبقاً للاحتياجات العصرية ولتقلب الاحوال في الزمان والمكان. وقد يصح غالباً في الكنائس الشرقية عامة، الكلام الذي قاله البطريرك غريغوريوس يوسف على الكنيسة الملكية خاصة، وعدم وجود حق قانوني تقيد به. فان كان احداث التجدد في النظام غير ممكن، فكيف الوصول الى وضع القانون؟ وقد علمت الخبرة ان عدم مجاراة الظروف في احكامها، عند حدوث الحوادث الجديدة، يؤدي الى اضرار جسيمة. والشاهد في ذلك كثرة الدعاوي الناتج عنها فسخ الزواج، وزيادة حوادث مخالفة شرائع الصوم والقطاعة وحفظ الاعياد، والتصرف المطلق، في بعض الاحيان، بالسلطة الكنائسية من غير قيد ولا شرط.

هذا من امر الطقس ومعانيه وتحديداته والنتائج الصادرة من ذلك، على ان في بلادنا طقوساً عديدة. فكيف نشأت؟

(لها بقية)